ديناميةاللغات مقاربة لوضع اللغة العربية في الجزائر

أ.عثمان ملاوي
جامعة الجزائر 2

الملخص: بعد حوالي 52 سنة من استقلال الأرض، مازالت الجزائر تعاني من هلامية توطين الذات، ويرجع ذلك أساسا إلى مسألة اللغة العربية، وهي المسألة التي خلقت حقلا واسعا من الصراعات المغلقة، فتحولت اللغة العربية، بذلك، من هدفها الأساسي المنوط بها؛ وهو بناء الشخصية الوطنية، إلى هدفها المستحدث؛ بأن أصبحت رهانا في الصراع من أجل السلطة بمختلف مستوياتها. فالأوضاع اللغوية في الجزائر أمر في غاية التعقيد، ويحتاج إلى كثير من الدّراسة والتمعن؛ بسبب تنوع الأعراق واللغات والثقافات في هذا البلد الذي شهد تاريخا حافلا بالدينامية والغموض، وعليه؛ فإننا نروم من هذه الورقة البحثية، محاولة الكشف عن دور اللغة العربية، بصفتها قوة اجتماعية، في تحريك المشهد الاقتصادي والثقافي والسياسي في الجزائر منذ الاستقلال وإلى غاية اليوم.

Abstract : After 52 years from the independence of the land, Algeria still already suffering from the settlement of the identical issue, that is refer mainly to the issue of Arabic language which is created a wide area of closed conflicts. So that the Arabic, has been declined, from the essential goal such constructing the national personality, to the margin one, in which; it became a real bet in conflicts about the government in all its levels. The linguistic landscape, in Algeria, is too complicated and need objective statistic studies, because of the geo-historical dynamics of this country which is made real varieties of races and cultures. This paper aims to discover the role of Arabic language such us a social power within the economic and political dynamics from the independence until this day.

تمهيد: إثر انطفاء الثورة العسكرية التي شهدتها الجزائر إبان الاستدمار الفرنسي، وجد هذا البلد نفسه، في فجر استقلاله، منهمكا في ثورات أخرى، لا تقل أهمية ولا خطورة عن سالفتها؛ إذِ انغمس في أتون الثورات الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والسياسية والالكترونية، وذلك من أجل بقاء نظام سلطوي

واحد، قادر على ضبط موازين الحكم؛ وتسييس إنتاج الوعي؛ ورأب تصدع الثقافات الذي خلفه المستدمر، ولم يكن من بد على هذا النظام إلا «أن يتضمّن مشروعا لغويا بلا أي تشكك وفي غير ارتياب، فاللغة هي الحامل الأكبر للمنتج الثقافي، وهي الجسر الأعظم للمسوق الإعلامي، وهي السيف الأمضى في الاختراق النفسي، وعليها مدار كل تسلل إيديولوجي، أو اندساس حضاري، فدعاة الأممية وأنصار العولمة والمحتشدون وراء الكونية، يعلمون علم اليقين أن اللغة هي أم المرجعيات»[1].

ويعتبر التعرض لمثل هذه القضايا في الجزائر، أمرا محفوفا بالمزالق والتعبئة السلبية واللاعقلانية، لأن أغلب النّاس، من غير المختصين، يعتقدون أن دراسة المسألة اللغوية هو مقلب سياسي؛ لهز أمن البلاد والعباد، وأنه ادّعاء فاسد يحرض على زعزعة الوحدة الوطنية، وهذا أمر مردود لسببين:

أولهما: أنّ الجزائر ليس البلد الوحيد في العالم الغني بالتنوعات العرقية والتعدّدات اللغوية والتداخلات الهوياتية.

ثانيهما: أنّ ترك هذه القضية دون دراسة علمية؛ موضوعية ومنطقية، هو الخطر الحقيقي، فأماكن التجاور اللغوي والعرقي والثقافي، إن لم تلقى العناية السياسية اللازمة، قد تتحول في أي وقت إلى بؤر للعداء والصراعات.

1- دينامية اللغة: تحيل كلمة دينامية "Dynamics" في الأصل اليوناني إلى "Dynamikos" والتي تعني القوة، ويقوم المذهب الفكري الدينامي على تفسير حركة الكون بلغة القوى وتفاعلها، أي دراسة حركة الأشياء، وكذلك القوى، المباشرة وغير المباشرة، المسببة لتلك الحركة، مع مراعاة خصوصيات زمان ومكان الحدث، وقد عبّر عنه أغلب اللسانيين في سياقات أخرى بمصطلح «حيوية»، غير أن مصطلح «دينامية» يرد في سياق الثنائية (لغة-سياسة) أكثر من ورود المصطلح السابق الذي تداول استعماله وفق الثنائية (لغة-تواصل).

وبدأ التحدث عن دينامية اللغات، بشكل رسمي، سنة 2001، بعد اعتماد اليونسكو مشروعا يُعنى باللغات المهددة بالاندثار، وذلك من أجل تشجيع التعدد اللغوي، لأن أهمية أي لغة في سياقها اللساني الاجتماعي «لا ينتج من قيمتها اللغوية الدّاخلية، ومن صور كلماتها وبناها النحوية، على الرغم من أهمية هذه القيمة، بقدر ما يَنْتُجُ من وظيفتها باعتبارها أداة للتواصل في صدد الشيء المهم مع الشخص المهم، لدى مستعملي اللغة تبعا للمجالات الحيوية اليومية التي تعنيهم، مثل التجارة والدين والتربية والثقافة والرياضة والترفيه والفرجة»[2].

وبذلك تصبح اللغة قوة حقيقية، مثلها مثل باقي القوى الاقتصادية والثقافية والسياسية، وتفاعل تلك القوى في ما بينها هو تفاعل دينامي، له مسبباته المباشرة وغير المباشرة، وله حركيته التي تحتاج إلى رقابة وفهم، وله زمانه الخاص به وله أيضا مكانه الذي يتواجد فيه، ودراسة دينامية اللغة تُفضي، ضرورة، إلى مراعاة جميع تلك الأركان، لأنّنا نتعامل مع قوة من نوع خاص؛ وهي قوة تستعملها كل قوى العالم من أجل حجز مقام عال في التموضع السُّلطوي.

2- عوامل دينامية اللغات: يمكن وضع خمسة عوامل رئيسة لتحديد دينامية لغة ما في دولة ما، وهذه العوامل الخمسة، لا يمكن فصلها واقعيا، فهي متشابكة ومتداخلة ومكملة لبعضها البعض، وهي كالتالي:

- انتقال اللغة عبر الأجيال؛
- نسبة الناطقين من إجمالي عدد السّكان؛
- التغييرات في مجالات استخدام اللغة؛
- مواجهة مجالات ووسائل إعلام جديدة؛
- التعليم باللغة[3].

وتختلف درجة تقييم كل عامل، وفق ست مراتب:

الدرجة الأولى: لغة آمنة: أي أن هذه اللغة آمنة وذلك ما يمنحها **5** علامات كاملة؛

الدرجة الثانية: لغة مستقرة: أقل درجـــة من اللغة الآمنة، وفيه تتحصل اللغة على **4** علامات؛

الدرجة الثالثة: لغة مستقرة نسبيا: هنا تنتهي مرحلة الاستقرار، بحيث تتحصل على **3** علامات فقط؛

الدرجة الرابعة: لغة في حالة خطر: تمثل بداية مرحلة الخطر، ولا تزيد درجة تقييمها عن **2** علامة؛

الدرجة الخامسة: لغة في حالة خطر شديد: زيادة مرحلة الخطـــر، وتمنـــح اللغة **1** علامة فقط؛

الدرجة السّادسة: لغة منقرضة: أكبر درجات الخطر وبناء على ذلك لا تُمنح أي علامة **0.**

1.2- العامل الأول: انتقال اللغة عبر الأجيال: يعتبر فيشمان أول من وضع هذا العامل لتحديد درجة دينامية لغة ما وفق الجدول التالي:

درجة دينامية اللغة	المعيـــــار	العلامة
آمنة	تستخدم اللغة كافة الفئات العمرية بمن فيهم الأولاد	5
مستقرة	يستخدم بعض الأولاد اللغة في كافة المجالات ويستخدمها جميع الأولاد في مجالات محدودة	4
مستقرة نسبيا	يتكلم اللغة على الأغلب جيل الأهل والأكبر منهم	3
في حالة خطر	يتكلم اللغة على الأغلب جيل الأجداد والأكبر منهم	2
في حالة خطر شديد	يعرف اللغة قلائل من جيل الأجداد القدامى	1
منقرضة	لم يبق أي ناطق بها	0

جدول رقم 01: معايير انتقال اللغة عبر الأجيال

2.2- العامل الثاني: نسبة الناطقين من إجمالي عدد السّكان:

درجة دينامية اللغة	المعيار	العلامة
آمنة	الجميع يتكلم اللغة	5
مستقرة	الجميع تقريبا يتكلم اللغة	4
مستقرة نسبيا	غالبية تتكلم اللغة	3
في حالة خطر	أقلية تتكلم اللغة	2
في حالة خطر شديد	قليلون هم الذين يتكلمون اللغة	1
منقرضة	لا أحد يتكلم اللغة	0

جدول رقم 02: معايير نسبة الناطقين من إجمالي عدد السكان

3.2- العامل الثالث: التغييرات في مجالات استخدام اللغة:

درجة دينامية اللغة	المعيار	العلامة
آمنة	تستخدم اللغة في كافة المجالات ولكافة الوظائف	5
مستقرة	يمكن استخدام لغتين أو أكثر في كافة المجالات الاجتماعية ولمعظم الوظائف	4
مستقرة نسبيا	تستخدم لغة الأجداد في المجالات المنزلية ولوظائف عدّة، إلاّ أن اللغة السائدة بدأت بولوج المجالات المنزلية	3
في حالة خطر	تستخدم اللغة في مجالات اجتماعية محدودة ولوظائف عدة	2
في حالة خطر شديد	تستخدم اللغة في مجالات محصورة للغاية ولوظائف قليلة جدا	1
منقرضة	لا تستخدم اللغة في أي مجال على الإطلاق	0

جدول رقم 03: معايير التغييرات في مجالات استخدام اللغة

4.2- العامل الرابع: مواجهة مجالات ووسائل إعلام جديدة:

درجة دينامية اللغة	المعيـــــار	العلامة
آمنة	تستخدم اللغة في كافة المجالات الجديدة	5
مستقرة	تستخدم اللغة في معظم المجالات العديدة	4
مستقرة نسبيا	تستخدم اللغة في العديد من المجالات	3
في حالة خطر	تستخدم اللغة في بعض المجالات الجديدة	2
في حالة خطر شديد	تستخدم اللغة فقط في القليل من المجالات الجديدة	1
منقرضة	لا تستخدم اللغة في أي مجال جديد على الإطلاق	0

جدول رقم 04: معايير مواجهة مجالات ووسائل إعلام جديدة

5.2- العامل الخامس: التعليم باللغة:

درجة دينامية اللغة	المعيـــــار	العلامة
آمنة	لغة مكتوبة ومنطوقة لها نحو وصرف ويمكن إملاءها وقراءتها وكتابتها، وتستخدم في التعليم والإدارة ومجالات التأليف والإبداع، وواقع الحياة ووسائل الإعلام اليومية	5
مستقرة	تتوفر مواد مكتوبة في المدرسة، ويمكن للأولاد أن يتعلموا قراءة اللغة وكتابتها، ولا تستخدم في الإدارة	4
مستقرة نسبيا	تتوافر مواد مكتوبة للغة، وقد يطلع الأولاد على شكلها المكتوب في المدرسة، دون أن يتعلموا بها	3

في حالة خطر	تتوفر مواد مكتوبة، لكنها تشكل رمزا فقط لبعض أفراد المجتمع، ولا تدخل أبدا في المنهاج التعليمي	2
في حالة خطر شديد	ثمة مواد مكتوبة قيد التحضير والطبع	1
منقرضة	لا كتابة ولا قراءة ولا تعليم للغة	0

جدول رقم 05: معايير تعليم اللغة

مقاربة الجداول لوضع اللغة العربية في الجزائر: لا يمكن إعطاء إحصاءات دقيقة في هذا المجال، لأن الجزائر تحوي 48 ولاية تتقاسم مساحة إجمالية تقدر بحوالي:2.381.741 كم^2، وتسع أكثر من 38 مليون نسمة، فالعربية التي تقصدها الدّراسة هي العربية المعيارية، لسان حال الدّولة الرسمي، ومرجعية الدين لكل الشّعب تقريبا، ورغم تغييب استعمالها في التعاملات اليومية، إلاّ أن الأغلبية يعرفونها جيدا ويفهمونها ويكتبون بها، بل إنهم لا يكتبون بغيرها في الأوضاع الرسمية مثل: أقسام المدارس والجامعات والمراسلات الرسمية والشكاوي والتواصل مع المسلطة والإدارة، غير أن، اللغة الفرنسية، تزاحمها في الاستعمال أيضا، وبشكل مخيف، وذلك على مستوى الولايات الوسطى والغربية، وبالأخص في المعاملات البنكية والمراسلات الدولية، وفي بعض أماكن الحظوة والنفوذ السّياسي، وتنوب عنها، أيضا، في بعض الولايات اللغات المازيغية، بجميع تمثُّلاتها: «القبائلية (منطقة القبائل)، والشّاوية (منطقة الأوراس)، والمزابية (منطقة المزاب)، والتواركية (الطوارق في الصحراء الجنوبية)، والزناتية (في عدة مناطق متفرقة خاصة في الواحات الجنوبية)[4]». ولكن تجدر الإشارة إلى أن الفرنسية ليست لغة تراب في الجزائر، أي أنها ليست لغة هوية ولا لغة تاريخ، وأن المازيغيات تعاني أيضا من

عدم الوحدة اللغوية، فلم تستطع لحد الآن أن تؤسس للغة وطنية موحدة، وغياب الوحدة أضعف شأنها وجعلها لغات هامشية، تحتاج دائما إلى لغة مركزية تعبر بها؛ أحيانا تكون الفرنسية، وغالبا ما تكون العربية، لأنّ نسبة كبيرة من الجزائريين الذين يتكلمون العربية لا يعرفون أدنى أبجديات المازيغيات، ونسبة معتبرة من المازيغ يستعملون العربية ويتكلمونها بفصاحة معتبرة.

وبالرجوع إلى مضامين الجداول السّابقة، يمكن إعطاء آراء متحفظة، لا ينبغي تعميمها إلّا بعد دراسة مؤسساتية واسعة العينات وشاملة التغطية، أما بالنسبة للجدول الأول، فيمكن وصف اللغة العربية المعيارية بالمستقرة نسبيا، وهو ما يمنحها 3 علامات من أصل خمسة، لأنها حسب معيار الجدول مازالت تنتقل بين الأجيال. وبالنسبة للجدول الثاني الذي يخص نسبة الناطقين من إجمالي عدد السكان، فيمكن منحها علامتين فقط (2)، وذلك راجع إلى أن أقلية تتكلم العربية المعيارية في بعض المقامات التي تغلب عليها طابع الدينية والرسمية المحتومة.

وبخصوص الجدول الثالث الذي يُعنى بالتغييرات في مجالات استخدام اللغة يمكن منحها 4 علامات، نظرا لوضعي الازدواجية والثنائية الذي يصاحب العربية المعيارية في التعاملات اليومية في المجتمع الجزائري. وفي الجدول الرابع الخاص بمواجه مجالات ووسائل إعلام جديدة، حافظت العربية المعيارية على مكانتها الإعلامية بامتياز، وهو ما يمنحها 4 علامات. أما بالنسبة للجدول الخامس الخاص بلغة التعليم، فإن العربية المعيارية هي لغة التعليم الأولى في الجزائر دون منازع وعليه تُمنح 5 علامات كاملة.

وبجمع العلامات وقسمتها على عدد الجداول تتحصل العربية على علامة إجمالية قيمتها 3,6، أي أنها تتراوح بين الاستقرار والاستقرار النسبي. وبذلك توصف دينامية اللغة العربية المعيارية في الجزائر بالدينامية المستقرة، فلا هي في تزايد يضمن مستقبلها بشكل أفضل، ولا هي في تناقص يهددها بالانقراض.

3- دينامية اللغة العربية والاقتصاد الجزائري: قد يبدو، للوهلة الأولى، ربط قوة اللغة بقوة الاقتصاد أمرا عبثيا، لا تُرجى فائدته، ولكن؛ بإعمال العقل، نجد أن الاقتصاد هو عالم شامل لحركة الأسواق والمعاملات التجارية: كالبيع والشراء والمرابحة والقرض، وهذا العالم لا بد أن يتحقق بلغة ما، مهما كانت، وعملية اعتماد تلك اللغة توفر للمنتسبين إليها فرصا للعمل، وإمكانية المشاركة في عمليات البيع والشّراء، وسهولة فهم حركة الأسواق، وبغير لغة الاقتصاد المهيمنة، لن يتأتّى لأي فرد الاندماج في هذا العالم دون وساطة لغوية أو ترجمة، فالأسواق الاقتصادية، توازيها، جِبلاً، أسواق لغوية داخلية، وسنحاول مقاربة المؤشرات الاقتصادية واللغوية للواقع الجزائري الرّاهن في ما يلي:

1.3- اللغة العربية والتنمية الاقتصادية في الجزائر: يُعرّف جل المختصين التنمية الاقتصادية بأنّها: « تغيّر كمي وكيفي للوضع الاقتصادي بما يحقق غايتين هما: نُموّ القوى الإنتاجية المتمثلة في عدد العمال المشَغَّلين وفي كمية السلع الإنتاجية والاستهلاكية والخدمات إلى جانب نمو العلاقات الاجتماعية للإنتاج»[5] وبذلك تصبح التنمية الاجتماعية شرطا أساسا في التنمية الاقتصادية، وهذا ما يعرف بالتنمية الشّاملة؛ وهو مفهوم يتأسس على البعد اللغوي، باعتبار أن الــمُنتِج لا يتواصل إلّا باللغة، وبإسقاط هذه التمثُلات على اللغة العربية في الجزائر نَخلُصُ إلى ما يلي:

أ- على المستوى الوطني: بقي استعمال اللغة العربية في الأسواق الدّاخلية منحصرا على العاميات المتداخلة بالعربية المعيارية المتداخلة باللغات الأجنبية وهو ما يعرف بالتعدد اللغوي. وسياسة الدولة الاقتصادية لم تراع قضية العولمة الاقتصاد-لغوية، وهو ما جعل استيراد المنتجات يتم في نفس الخط مع استيراد مصطلحات تلك المنتجات بلغات منشئها، وبالتالي تداولت السّلع في الأسواق الجزائرية بتسمياتها الانجليزية والفرنسية خاصة في مجالات التكنولوجيا والألبسة

والتجميل والأثاث والميكانيك، وهذا ما يعبر عنه في علم المصطلح بألفاظ الحضارة على حد تعبير محمود تيمور.

ب- على المستوى المغاربي: من بين أسباب فشل معاهدة اتحاد المغرب العربي، التي تهدف إلى الاندماج والتنمية الاقتصاديين بين دول المغرب العربي الكبير، هو عدم التوافق في اعتماد لغة موحّدة، فالاقتصاد الجزائري مربوط بالفرنسية أساسا، والاقتصاد التونسي مربوط بالإيطالية، والاقتصاد المغربي مربوط بالإسبانية، والاقتصاد الليبي مربوط بالإنجليزية والايطالية، وبدل أن يؤسِّسوا هذا المشروع التنموي باللغة العربية، استندوا فيه على لغات أجنبية لم تؤمّن لهم الوحدة المنشودة.

جـ - على المستوى العربي: لطالما ربط علماء الاقتصاد الاجتماعي بين ازدهار النشاط الاقتصادي والأهمية الكبيرة للتجانس اللغوي، حيث عبّر عن ذلك المفكر لينين Lenin بقوله: «إن تجانس اللغة وتطورها المتحرر من العوائق هما من الشروط المسبقة للتجارة واسعة النطاق والحرة بشكل حقيقي»[6]، وتقدر « كلفة الترجمة في الاتحاد الأوربي، بناء على اختيار التعدد اللغوي الرسمي، بأكثر من 40 % من ميزانية إدارة الاتحاد»[7]، فأوربا المتحدة اقتصاديا وسياسيا، تأثرت بالتعدد اللغوي الذي أنتج نوعا من الشُّروخ التنموية لهذه القارة، رغم أنّ التعدد اتحادي بدرجة أكبر من كونه وطنيا خالصا. وما لا يَخفى ذكره أن اللغة العربية هي اللغة الرسمية لـ 22 دولة تمتد على مساحة إجمالية تقدر بحوالي: 13.8 مليون كم^2، لذلك «فالمنطقة العربية منطقة حيوية لـ (الآخر)»[8]، إضافة إلى أن هذه المنطقة تستمد دينامية جيو-سياسية من توسطها لقارات العالم، وامتدادها بين قارتي أفريقيا وآسيا. وبناء على ذلك، تصبح اللغة العربية في الجزائر لغة دينامية بامتياز، وأكثر أهمية من اللغة الفرنسية الأجنبية.

2.3- التعدد اللغوي والاقتصاد العالمي: لقد باتت فرضية العلاقة بين عدد اللغات المستعملة في البلد الواحد وقيمة الدخل الفردي السنوي واقعا علميا حقيقيا وذلك طبقا للعلاقة العكسية التالية:

البلد	عدد السّكان بالمليون	دخل الفرد السنوي بالدولار	عدد اللغات
أيسلندا	0,25 مليون نسمة	21 660 دولار (1987)	لغة واحدة
اليابان	122 مليون نسمة	21 020 دولار (1988)	5 لغات
ألمانيا	60 مليون نسمة	18 480 دولار (1988)	7 لغات
إثيوبيا	50 مليون نسمة	120 دولار (1987)	120 لغة
تشاد	5 مليون نسمة	160 دولار (1987)	117 لغة
بابوا (غينيا الجديدة)	849 مليون نسمة	810 دولار (1988)	849 لغة

جدول رقم 06: مقارنة دخل الفرد بعدد اللغات في عدد من البلدان الصناعية والنامية[9]

نلاحظ من خلال الجدول رقم 06: أن أعلى دخل في أواخر الثمانينات من القرن الماضي، عند الفرد الأيسلندي، وذلك لوجود لغة واحدة في هذا البلد، ثم تأتي اليابان في المرتبة الثانية بدخل سنوي يزيد عن 21 ألف دولار، وبمعدل 24 مليون ناطق لكل لغة، ثم تأتي ألمانيا بمعدل 8 ملايين ناطق لكل لغة. أما بالنسبة لإثيوبيا فكل 400 ألف نسمة يتكلمون لغة واحدة، وهو ما جعل دخل فردها السنوي لا يتجاوز 120 دولار. وبمقارنة جميع معطيات الجدول السّابق، نتوصل إلى نتيجة مفادها أنه كلما قل عدد اللغات في الوطن الواحد كلما زادت الوحدة الوطنية، وكلما زادت الوحدة الوطنية كلما تم التغلب على معوقات التنمية، وكلما تم التغلب على

معوقات التنمية كلما زاد ناتج الدخل الفردي، وهذا ما يحفز تتبع الجزائر لتفعيل قانون تعميم استعمال العربية في كافة المجالات، وهو القانون الذي تم تجميده نهاية القرن الماضي.

4- اللغة العربية والأبعاد الثقافية في الجزائر: يرى باتريك سافيدان أنّ: « من واجب الدولة الديمقراطية الاعتراف، من جهة، بتعدد المجموعات الإثن-ثقافية التي تساهم بشكل دال في تكوين سكّانها، والبحث من جهة ثانية على ملاءمة هذا التنوع الثقافي في حدود الإمكانات المتوفرة، وذلك على أسس منطقية وواضحة»[10]، وفي حقيقة الأمر، فإن تنوع الثقافات في الجزائر، يدرج ضمن ما يعرف بالتنوع الداخلي؛ أو التنوع الذي ينشأ عن تشاكل مجموعة من الأفراد يتقاسمون نفس الجنسية والأرض والتاريخ، بعكس التنوع الخارجي الذي ينجرّ عن توافد العمالة الأجنبية إلى بلد ما بحكم المصالح الاقتصادية أساسا، وهو الأمر الذي يحيلنا إلى استثارة الأبعاد الثقافية باعتبار أن «اللغة هي الشرط الأول لنشأة الثقافة»[11]، وقد لاحظ هردر J.Herder أكبر فلاسفة ألمانيا في منتصف القرن 18 أن تعدد الثقافات يرجع في الحقيقة إلى تعدد اللغات، وكثيرا ما يلاحظ الدارسون، العلاقة الوصيفة واللصيقة بين طبيعة اللغة والأنماط الثقافية السّائدة في مكان ما، لأن الفرد دائما «يتأثر باللغة التي يتكلمها بحيث يمتد هذا التأثر ليشمل نمط تفكيره وتصوراته ومشاعره»[12].

ونحن هنا، بصدد تحليل القضية اللغوية، وهو في الواقع «تحليل للنسيج الاجتماعي الثقافي الذي تقوم عليه الوحدة الوطنية، وهذا التحليل ليس في واقعه لغويا بقدر ما هو تحليل للمجتمع وقدراته ومدى حيويته»[13]، وهذا ما يزج بالعلاقة بين ديناميكية اللغة والديناميكية الثقافية في علاقة تأثير وتأثر مستمرة ومتكافئة.

منذ استقلال الجزائر، وبداية الصراع بين التيارين التعريبي والفرنكفوني، لم تشهد الجزائر إلّا محاولات محتشمة جدا لنشر الكتب بالعامية، وهو انتصار حقيقي

للغة العربية على اللهجات في مجال النشر والثقافة، لأنّ العربية بقيت بامتياز لغة المثقف، هذا من جهة، ومن جهة أخرى نلاحظ أنّ عددا معتبرا من الأدباء؛ أمثال آسيا جبار وكاتب ياسين ومحمد ديب ومولود فرعون، لم يستطيعوا التخلص من عقدة الاستدمار الثقافي وهو أمر سلبي جدا على صعيد الثقافة الوطنية، على عكس مالك حداد الذي توقف عن الكتابة بالفرنسية إثر استقلال الجزائر مباشرة، وذلك لوعيه بقيمة اللغة العربية في رسم المسار الثقافي للجزائر، لأنه يرى أن «اللغة ليست شكلا فقط بقدر ما إنها روح التربية، فقراءة النص الأدبي لا ينقل منه جميل الأدب فقط، بل الفكر، وفهما لتجربة معينة في بلد له خصوصياته الثقافية واللغوية»[14]، وكثيرا ما كان مالك حداد يردد: «ليس هناك إلّا توافق تقريبي بين فكرتنا العربية وألفاظنا الفرنسية»[15]، فاللغة حسب رأيه مسألة وطنية، تنبع من روح الأمة، لا يمكن أن تعار أو تستعار بحجة حوار الثقافات المزعوم.

5- اللغة العربية والصراع السّياسي في الجزائر: إن « الشعب الجزائري في الأساس شعب أُخرج من التاريخ السياسي والجغرافي بعنف استئصالي، وعاد إليه بعنف تحريري»[16]، وهذه المفارقة كانت سببا تأثيليا مباشرا في مسار الجزائر السياسي. فالعنف غير منتج على الإطلاق، خاصة عندما يمارس على جزائري من جزائري مثله، وهذا ما ساهم، وبشكل جوهري، في تعقيد الوضع السّياسي للغة العربية إثر استقلال أرض الجزائر، والذي سنشرّحه في النقاط التالية:

1.5- المأزق التاريخي للغة العربية في الجزائر: يعتبر الاستدمار الفرنسي للجزائر أعنف استدمار أجنبي في القرن العشرين، لكونه من الصنف الاستيطاني الذي يهدف إلى جعل الجزائر مقاطعة فرنسية أفريقية ملحقة للدولة الأصل في أوربا، ولدوامه أكثر من 130 سنة متتالية، بالإضافة إلى قيامه على مبادئ فرنسة الذات قبل الأرض، وتركيزه على طمس الهوية العربية الإسلامية للشعب الجزائري، فمجرد احتلال الأرض سنة 1830، وبعد أقل من ثمان سنوات قررت

الدولة الفرنسية ضرب اللغة العربية من الخارج، وقرّرت «بمرسوم صدر سنة 1938 أن العربية لغة أجنبية وجعلت الفرنسية لغة رسمية لها، وفرضت استعمالها لوحدها في الإدارة والتجارة والتعليم والإعلام والإعلان»[17]، وبعد ذلك عملت على ضرب اللغة العربية من الدّاخل عن طريق تعميم استعمال وتعليم العاميات الجزائرية في شؤون الدّين ووظائف الحياة، ولكنّ جهود الزوايا والكتاتيب وجمعية العلماء المسلمين و نضالات الحركات الوطنية (الواعية بقيمة اللغة العربية)، وقفت صدا منيعا ضد بقاء العربية وحفظها من الاندثار. حيث أن الجزائر، إثر استقلالها مباشرة، وجدت واقعا لغويا «ذات بنيات إدارية وأنظمة تعليمية ومؤسسات اقتصادية تسود فيها اللغة الفرنسية سيادة مطلقة»[18].

2.5- بين التعريب وخطاب التلهيج الفرنكفوني: عندما أعيد الجنرال ديغول للحكم سنة 1958 عن طريق ثورة الجزائر، جمع في اجتماع سريّ رجال السياسة وقال لهم: استقلال الجزائر آت لا محالة، المهم أن نتتدارس كيف نحافظ على الجزائر المستقلة في الفلك الفرنسي، فما رأيكم في الوسائل التي تضمن لنا ذلك؟. قال أحدهم: بإقامة قواعد عسكرية ومراقبة أرض وسماء الجزائر. فأجابه الجنرال بأن هذا تجاوزه الزمن. وقال آخر: بتطوير مشروع قسنطينة الاقتصادي الذي أقمناه قبل أن نخرج وربط اقتصاد الجزائر بالاقتصاد الفرنسي. وجاء جواب ديغول حاسما فقال: لا هذا ولا ذاك، حافظوا على وضع اللغة الفرنسية بالجزائر تحافظون على بقاء الدولة الجزائرية المستقلة في الفلك الفرنسي[19]. وفي نفس السنة تأسست الحكومة الجزائرية المؤقتة، والتي كانت تمثل النواة الأولى للإدارة الجزائرية باللغة الفرنسية، وهو الأمر الذي تنبأ به ديغول، والذي يدخل في إطار «أن الهيمنة اللسانية هي البوابة العظمى للسيطرة على باقي مقدرات الشعوب»[20]، وقد قامت الحكومة الفرنسية بتدعيم بعثات لاكوست التي تهدف إلى تكوين إداريين جزائريين باللغة الفرنسية بغية تعويض الكادر الإداري الفرنسي الذي سيغادر الجزائر بعد

إعلان الاستقلال مباشرة، وذلك من أجل غايات سياسية محضة، ولكن صدور قانون العربية بالوظيفة العمومية سنة 1968 الذي نص على ما يلي: «كل من ليس له مستوى في معرفة اللغة العربية لا يدخل الوظيفة العمومية، وكل من ليس له مستوى في معرفتها وهو موجود بالجهاز الإداري لا يرقّى» كان له الأثر البالغ في تأزم الصراع بين التيار العربي والتيار الفرنسي، وهو القانون الذي تم التحايل على فحوى تطبيقاته، ويبدو أن مسار التعريب في الجزائر «من وجهة نظر سوسيولوجية بمثابة مكان للتعبير، في آن واحد، عن الخطاب الإيديولوجي الوطني وحقل التوترات السوسيو-إيديولوجية المغلقة»[21]، وهذا ما يعبر عنه بلعبة الانتقاء الاجتماعي ضمن عالم الصراعات. ثم صدر بعد ذلك أهم قرار للجنة المركزية لحزب جبهة التحرير الوطني سنة 1979 الذي ينص على تعريب التعليم الأساسي ومنه اعتماد بكالوريا واحدة معربة في الجزائر، وبعد ذلك، سنة 1991، صدر قانون تعميم استعمال اللغة العربية، الذي تم تجميده لاحقا لأسباب تعود في الأصل إلى العداوة السياسية بين التيارين العربي والفرنسي.

3.5- التكامل الهوياتي بين المازيغية والعربية: يرى المفكر المازيغي ناصر الدّين المشدالي[22] أنّ اللغة العربية في الجزائر «يجب أن تحظى بعناية خاصة، فهي ليست مثل اللغات الأخرى، وواجبنا جميعا تعلمها والعمل على نشرها»[23]، وقد كانت مسألة الهوية محسومة بالنسبة للجزائريين الذي باتوا يؤمنون بأنهم مازيغ عرّبهم الإسلام بالإضافة إلى العرب الأصليين منهم، ولكن المستدمر الفرنسي تعمّد استثارة هذه القضية لتفريق الشعب الجزائري، وفضّ وحدته وتلاحمه، وهي الإشكالية التي عادت إلى واجهة الحياة السّياسة في الجزائر مجددا، حيث «ظهر الملف مرة أخرى يحمل إشكالية إرهاصات ستينيات القرن الماضي، والتي تأججت بعد ذلك بفعل التهييج المازيغي منذ ربيع 1980»[24]. وفي حقيقة الأمر فإن المازيغيات بجميع تمثلاتها، لن ولم تشكل أي خطر على اللغة العربية، لأن

المازيغية كانت تكتب بالحرف العربي، في القرن 18، ولأن العربية ليست لغة إقصائية على الإطلاق، ولو كانت كذلك لما بقي وجود للمازيغيات منذ دخول الهلاليين إلى أرض الجزائر في القرن العاشر، فالعربية بمبادئها الإسلامية حافظت على هوية المازيغ، أصحاب الأرض التاريخيين، بل وقام أغلب القادة والعلماء المازيغ بخدمة الدين الإسلامي واللغة العربية أكثر من العرب المسلمين أنفسهم، بل إن التاريخ يثبت أنّ أكثر علماء العربية كانوا من غير العرب. ولكن الخلط المتعمّد لمسائل الهوية الجزائرية، بسبب مصالح سياسية ضيقة جدا، طفا على السطح مجددا، من خلال مسألة كتابة الحرف المازيغي باللغة اللاتينية تحيزا إلى اللغة الفرنسية، وذلك من أجل الحفاظ على الهوية المازيغية، وفي هذا الصدد، يجب التنويه إلى أنّ الحرف المازيغي أجدر أن يكتب بحرف التيفيناغ القبائلي الأصلي للهوية المازيغية، أو أن يكتب بالخط العربي من أجل إعطاء هذه اللغة حظا أوفر للقبول والانتشار داخل الوطن الجزائري والوطن العربي.

خـــــاتمـــــة: يتعين على النظام السلطوي، في الجزائر، إعادة النظر في المسألة اللغوية بشكل عام، ومسألة اللغة العربية بشكل خاص، ولا بدّ عليه أن يدرك أن ترتيب اللغة العربية عالميا في المرتبة السّادسة، أي قبل اللغة الفرنسية التي تأتي في المرتبة السّابعة، له أبعاده الجيو–سياسية، وأن وضع اللغة العربية أقوى من وضع اللغة الفرنسية؛ تُرابيا وسياسيا واقتصاديا وثقافيا وتاريخيا، وعلى القَوي أن لا يمنح قيادة صيرورته إلى من هو أضعف منه، وهو ما يقودنا إلى النتائج التالية:

– يكمن مأزق العربية في الجزائر في المفرنسين الذين لا يتكلمون العربية لأنهم لا يملكون لسانا آخر للتَمَوْضُع السّياسي والاقتصادي والثقافي؛

– لا يمكن أن تتحقق التنمية الشّاملة ما لم تكن بلغة التّراب والهوية والتاريخ؛

– الوحدة اللغوية تسهل توحيد المجتمعات ثقافيا، وتتيح لهم خيارات سياسية واقتصادية أفضل؛

– وضع اللغة العربية في الجزائر متوسط الدّينامية؛

– أزمة اللغة العربية في الجزائر هي أزمة حضارية وليست تواصلية.

الهوامش:

1– عبد السلام المسدّي، العرب والانتحار اللغوي، دار الكتاب الجديد المتحدة، لبنان، ط1 2011، ص29–30.

2– مجموعة مؤلفين، اللغة والهوية في الوطن العربي، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، قطر، ط1، 2013، ص328.

3– ينظر: فريق خبراء اليونسكو الخاص المعني باللغات المهددة بالاندثار، وثيقة منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة (اليونسكو)، حيوية اللغات وتعرضها للاندثار.

4– مجلة تبيين للدراسات الفكرية والثقافية، في اللغة والتاريخ والهوية، محمد الكوخي، الأمازيغية المعيارية بين اختلاف لغة جديدة وصناعة الوهم الأيديولوجي، عدد7، قطر، 2014، ص32.

5– أعمال الندوة المغربية، مساهمة اللغة العربية في التواصل والتضامن والوحدة بين أقطار المغرب العربي، المجلس الأعلى للغة العربية، الجزائر، 2003، ص349.

6– ينظر: فلوريان كولماس، اللغة والاقتصاد، تر: أحمد عوض، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 2000، ص53.

7– عبد القادر الفاسي الفهري، السّياسة اللغوية في البلاد العربية، دار الكتاب الجديد المتحدة لبنان، ط1، 2013، ص8.

8– هيثم سرحان، غياب التخطيط واختلال السّياسات، مجلة الكوفة، العدد 3، 2013، ص58.

9– فلوريان كولماس، ص33.

10– باتريك سافيدان، الدولة والتعدد الثقافي، تر: المصطفى حسوني، دار توبقال للنشر، المغرب ط1، 2011، ص15.

11- Levy-strauss (C.), Anthropologie Structurale Plon, Paris , 1958.

12- أبو القاسم سعد الله، من حضارة الشعر إلى حضارة العلم، مجلة الفكر، تونس، العدد4 1976، ص73.

13- المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم (الألسكو)، الخطة الشاملة للثقافة العربية، تونس ط2، 1990، ص75.

14- سفيان لوصيف، السّياسة الثقافية في الجزائر: الإيديولوجيا والممارسة، دار المعارف، لبنان ط1، 2014، ص138.

15- عثمان شبوب، من اللغة تبدأ ثورة التجديد، الأصالة، العددان 17-18، 1973-1974 ص7.

16- مجموعة من المؤلفين، مستقبل الديمقراطية في الجزائر، مركز دراسات الوحدة العربية لبنان، ط2، 2009، ص101.

17- محمد العربي ولد خليفة، أعمال الندوة الوطنية حول أهمية التخطيط اللغوي: اللغات ووظائفها، منشورات المجلس الأعلى للغة العربيةــ، 2012، الجزائر، ص09.

18- جلبير غرانغيوم، اللغة والسلطة والمجتمع في المغرب العربي، تر: محمد أسليم، دار أفريقيا الشّرق، المغرب، ط1، 2011، ص12.

19- ينظر: عثمان سعدي، مسار التعريب في الجزائر، أشغال الندوة العلمية: واقع اللغة العربية وآفاقها، جامعة تبسة، 2014.

20- سلمان بونعمان، النهضة اللغوية وخطاب التلهيج الفرنكفوني : في نقد الاستعمار اللغوي الجديد حالة المغرب، مركز نماء للبحوث والدّراسات، لبنان، ط1، 2014، ص46.

21- جلبير غرانغيوم، اللغة والسلطة والمجتمع في المغرب العربي، ص19-20.

22- ناصر الدين المشدالي: هو أبو العلي منصور بن أحمد بن عبد الحق المشدالي، الملقب بناصر الدين المشدالي، مفكر إسلامي مازيغي توفي سنة 1331م (ينظر: صالح بلعيد المازيغيات).

23- صالح بلعيد، المازيغيات، منشورات مخبر الممارسات اللغوية في الجزائر، الجزائر، 2012 ص160.

24- المرجع نفسه، ص108.